

الباب الرابع

فلسفة جورج برنارد شو

كما يراها الفيلسوف المعاصر : جود ،

عرضنا في البابين السابقين نظرية برنارد شو الفلسفية ، وعلقنا عليها ، وقارناها
بغيرها من النظريات المعاصرة لها . . . واستكمالاً للبحث ، رأينا أن ندرج رأى أحد
الفلاسفة المعاصرين لهذه النظرية ، وسيعرضها لنا الفيلسوف الكبير : جود ، أحسن
عرض وتحليل . . .

، ١ ،

طبيعة وأصل فلسفة برنارد شو

يقول جود :

لا يعرف الفيلسوف إلا عن طريقته هامين ، يتفرد بهما دون سواه من الناس :
الطريق الأول ، هو ما يكونه لنفسه من رأى خاص في الوجود عامة ، وحال حياة
البشر فيه ، وكيف على ضوءه يجب أن يعيش الفرد منعماً مرغداً . . . والطريق الثانى
ما يعرف به نفس الرجل من كياسة وحكمة فى أقواله وأعماله ، وما يذيعه على الناس
من هذه الحكم ، فى شتى الموضوعات التى تهم السواد الأعظم منهم ، كحديثه عن
المال والله والحب والزواج والرغبة والموت والطموح أو الحكمة التى - فى حالة
جورج برنارد شو - تصاغ فى قالب يثبت فى الذهن ويخلد فى الذاكرة . .

وبرنارد شو فيلسوف ، وله فلسفة تشتمل على ناحيتين هامتين : الناحية الأولى
تتناول الحديث عن التطور الخالق . . .

وبالرغم من أن هذه الفلسفة تتجلى بوضوح فى رواياته إلا أن عناصرها الأولية
تركز فى مكانين معينين : فى مقدمة كتابه ، الإنسان والسيبرمان ، وفى منظر الجحيم
من الرواية ذاتها . وفى مقدمة روايته المشهورة - الرجوع إلى متوشالخ - والآخرى

وهي الامم ، لا لكونها ظهرت في عام ١٩٢١ ، إذا اعتبرنا أن عقل برنارد شو قد نضج وبلغ درجة بعيدة من الرشد والكمال منذ كتابته « الإنسان والسرمان » ، التي ظهرت عام ١٩٠٣ . ولكن لأنه كما يقول برنارد شو نفسه ، في نهاية مقدمة الرجوع إلى مترشالغ ، . . . وكما كنت وقتها في أعلى ذروة ابتكاري وحي للفكاهة ، فقد أخرجتها - أي الرواية - آية للعالمين ، وأحطتها بفكاهة في فصل واحد . وكان هذا الفصل كاملا من الناحية الاستطراذية ، أي أن هذه الكوميديا يمكن نزعها وتمثيلها على حدة ، وكانت النتيجة دائرية ، حتى أن أحدا لم يلحظ الدين الجديد في وسط الدراما الفعلية التي ابتدعها حينذاك . . .

« ٢ »

المادية

ولنبدا الحديث عن الجهات الاصلية التي استمد منها برنارد شو فلسفته . . . فأول ما يتبادر إلى أذهاننا نظرية التطور الخالق . ويستمد برنارد شو أفكاره مباشرة من صمويل بطلر إلى لامارك . وعلة ذكر صمويل بطلر ترجع أيضا إلى علاقته بدارون . وتأثير دارون كان في الاصل إيمانيا ، ولكنه ما لبث أن كون جانبا هاما في الفلسفة المادية للوجود التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر . وبهذه الفلسفة واجه الوجود مشكلة خطيرة : مشكلة أن الحياة نتيجة عملية لاوضاع القوانين الطبيعية والكيمائية تماما ، كما في حالة المادة غير الحية . وتحت تأثير بعض الشروط الفيزيائية لم يحاول الماديون أن يثبتوا أو يقرروا ندرة المساحات الكونية التي تكونت في رحابها المادة وأثبتت وجودها . . .

ووجود المادة معناه وجود الحياة . واستطراد الحياة آت عن طريق الشروط نفسها التي توافرت لدى الحياة أيام ولادتها ، وقد يأتي يوم تختفي فيه هذه العوامل أو الشروط فتتوقف الحياة عن السير وتنمحي الاميبا من الوجود . . .

وكان هذا هو الأساس الذي اكتشف به دارون « نظرية التطور » وقوانين الانتخاب الطبيعي ، التي بها دارت عجلة التطور ، فلعب دورا مكملا ، مكملا لأنه

في حالة نزوعها إلى ظواهر الحياة ، أدى ذلك إلى اعتقاد دارون بأنه ليست هناك قوة محرّكة في الكون تحوّه وترشده ، ولكن التطور كان في جل سيره يعتمد على عمليات القوى المادية التي سيطرت على الكوكب الأرضي قبل ظهور الحياة فيه .

وأبعد من ذلك أثرا حدوث التباين في النوع . وقد يكون هذا التباين قد وافق الوسط الذي ظهر فيه وقد لا يكون . فإذا لم يكن فقد استئصل ، وإذا كان فإن النباتين يقولون بتنازع البقاء في النسل أو الذرية ، كما أنه ميزة هامة في تاريخ النوع . وكل هذا حسن ومقبول . ولكن لماذا حدث التباين في النوع ؟

ولهذا السؤال خطورة وأهمية كبيرتان . فإذا لم يكن هناك تباين ، ولم يحدث تغيير في النوع ، فمضى هذا أن كل جيل يكون صورة طبق الاصل للجيل السابق له ، وتكون الامميا وما عاصرها هي نفس العناصر المكونة للحياة على الكوكب الأرضي . إذن فالتباين قد لعب دوراً أساسياً في ميكانيكية التطور ، وكان من الضروري أن يخلق النظرية ويظهرها للعالمين . .

ولكننا نعود إلى سؤالنا ونقول : لماذا حدث التباين ؟ . .

الرد على ذلك هي أبحاث لامارك التي سنعرضها في هذا الفصل . . .

اللاماركية

التباين في النوع كان منشؤه أثر البيئة . . فعند ما تغيرت البيئة وتبدلت كان لزاما على الكائنات الحية أن تتغير معها وتبديل ، وأن تخضع للتغيير أو تختفي من الوجود . وهؤلاء الذين خصصوا لعوامل التغيير لا شك أنهم بلغوا شأوا بعيدا في الرقي وكذلك فعل تابعوهم . . فالتكيفات الجديدة هذه تخيلها ، لامارك ، ولخصها في أنها لا تعدى نمو أعضاء جديدة وانقراض أخرى قديمة تدريجيا على مر السنين والاحقاب . كما أن التغيير في البيئة أدى إلى وجود حاجات جديدة ، حاجات جديدة لمعادات جديدة . وعادات جديدة لأعضاء جديدة تكونت بحكم الحاجة والعادة وسلطانهما . والواقع أن الفرق بين فلسفة لامارك وفلسفة دارون لم تكن كبيرة .

ونشأ هذا السؤال الطريف . . لماذا ولدت الزرافة برقية طويلة ؟ وطبقا لما

يعتقده تابعو دارون ، فإن الزرافة ولدت صدقة برقبة طويلة كما يولد الاطفال بالنش صدقة . .

ولكن الحقيقة لا تتعدى هذا البحث الطريف ، وهو أن « الزرافة » في الماضي كانت مكافئة كبيرة لتحصل على القوت ، فمدت رقبتها لتقطف أوراق الشجر من الأغصان العالية ، وبهذا أصلح حالها تدريجياً ، وطالت رقبتها على تعاقب الأجيال ويقول لامارك في هذا الصدد : إن الزراف وجد في دور معين من التاريخ أن كل الأغصان الواطئة قد أكلت ، فوقع تحت لروم أو حاجة إطالة الرقبة ليصل إلى الأغصان العليا أو يموت جوعاً . . فالنوع الذي خضع لعامل الحاجة هنا ، وللشرط المتغير ، نمت رقابه ، فنقل هذا التغير إلى نسله . ففي سبيل الكفاح للبقاء ، تغلب الأقوى وطالت رقبة وكل . وهذا الغالب الذي ساد لم يأت محض صدقة ولكن بسبب استمراره وكفاحه فنجاحه . . . وكانت الطريقة في نظر لامارك أقل تقريراً منها في نظر دارون ، فالتغير في البيئة الخارجية كتغير المناخ ، قد يجبر بعض الكائنات الحية على التغير أيضاً ، فإذا لم تخضع أعضاؤها للتغير مانت واندثرت ولم يصبح لها أثر يذكر في التاريخ . . .

آراء صمويل بطلر

ولكن لنفرض أن التغير في الأعضاء الحية بطريقة خضعت لها الأعضاء للتحويل في البيئة كان تغييراً فصدياً أو غائياً ، بمعنى أن أحداً أو شيئاً يعمل مستقلاً في تسكين هذه الأعضاء للكائنات الحية ، أو ربما يفقد الكمال عن طريقها أو فيها أو خلاها ، ولنفرض جدلاً بأن التغير في الأشياء الحية لم يكن دائماً النتيجة المباشرة لتغير سابق في الأشياء الميتة ، ولنفرض أنه حدث مستقلاً نتيجة حاجة الأشياء الحية إلى النشوء والارتقاء لتمييزها عن غيرها من الأشياء الميتة ، أو أنها استخدمت الأشياء الميتة لمنفعتيها الخاصة والذاتية ، فلو كان هذا صحيحاً فتكون « العلة » أو « السبب » تعمل أحياناً من الحى إلى الجماد أو من الحياة إلى الموت . . والضرورة القصوى في حالة أن المادة الحية أضحت ميتة ، بدلاً من أن تكون محصولاً ثانوياً للمبولى

أو للبادة، قد تكون في حالة مستقلة عنها. ولما كانت مستقلة، فقد يكون في استطاعتها أن تعمل عليها وتستعملها أو تتداخل فيها .

وهذا هو ما اعتقده صمويل بطزر ، وعلى هـديه تبعه برنارد شو ، وتعمق في دراسة التطور الابداعي الذى خطا خطوة كبيرة على يديه . .

نظرية شو في التطور الخالق

يفترض برنارد شو أن العالم يحتوى على عنصرين أساسيين هما : الحياة والمادة . وأحيانا يتحدث عن الحياة بأنها مادة مبدعة أو خالقة ، فبرغبتنا في استعمال أذرعنا مثلا بطريقة خاصة ، فإننا نأنى إلى الوجود بمجموعة عضلات ، ولكن الواقع أن المادة تكون كما كانت عليه من الابداء .

إذن فالمادة يعبر عنها بأنها « عدو » الحياة . . . أو وجدت الحياة في دوامة القوة ، وأجبرت عدوى « المادة » أن يطيع روحا حيا . . . وهكذا تقول ليليب في نهاية كتاب « الرجوع إلى متوشال » . .

فاعتبار أن المادة عدو ، وأن الحياة تعمل جامدة على أن تتحكم وتغلب عليها . وتدخل فيها تدخلا يكون من نتائجه أن يذبح هذا التغلب على المادة كائنات حيا . وهذا الكائن الحى يشقى صفاته ، ويشهد على وجود العنصرين الأساسيين اللذين يتكون منهما العالم ، وهما الحياة موضحة في المادة .

وبرنارد شو يقترح أكثر مما يوضح « بأن الحياة لا يمكن أن تتقدم أو تتطور إلا إذا تدخلت في المادة تدخلا كلياً لخلق الكائنات . . لأنها العدة اللازمة التى تتقدم بها وتتحول من طور إلى طور . . »

ولإيضاح ذلك بطريقة أسهل نقول : إن هذه القوة « قوة الحياة » ، تكشف عن نفسها بواسطة استخدامها المادة . . لاكتساب خبرة أوسع وأصلح ومعلومات أوفر ، وذلكاء خارق لتحصل على قوة وعى واسعة الأفق . .

والكائنات الحية إذن ، على هذا الضوء ، هى العدد التى تخضعها الحياة لتسهيل طرق تقدمها هى نفسها ، والمادة - بالرغم من أنها عدو الحياة - هى أيضاً حجر المسن الذى تشحن نفسها عليه لكي تخاطر خطرة حاسمة في التطور . . وهذه المادة

تؤدى مهمتها بواسطة القيود التى تفرضها على قوى الحياة ، أى أنها تجبر الحياة على بذل أقصى جهودها لتغلب على القيود حتى يتسنى لها أن تتقدم بنفسها لإحراز قوى جديدة ..

ولسكن هدف الحياة أن تمر وراء المادة ، أحنى وراء الضرورة التى تجبرها على تجسد نفسها واتحادها مع المادة . فإذا بلغت هذا الهدف - التكميل - تستمر المادة فى صد ودفع لتحديد من الحياة ..

والحياة أيضاً تعتمد على المادة . بمعنى أن كل تعبير مفرد للحياة ، باعتماده على الجسد الذى تجسده فى الحياة ليصبح كائناً حياً ، ينتهى وجوده الفردى بموت الجسد . ومن المظنون فيه أن هذه القوة ترتد أو تنعكس إلى المجرى الأسمى . وعند ما زادت حاجة التجسد فى المادة زيادة كبيرة ، فإن التعبيرات الفردية للحياة وقد أصبحت لا تعتمد كثيراً على التجسد ، تصبح ، كما نظن ، تعبيرات فردية أساسية وتكون فى الحقيقة خالدة .

وهذه النتيجة أو النظرية هى موضوع نقاش طويل بين القدامى والمحدثين من الفلاسفة . كما يروىها لنا برنارد شو فى الجزء الأخير من روايته الرجوع إلى متوشالغ ، الرجل القديم - ما دمنا مرتبطين بهذا الجسد ، فنحن عرضة للموت ، ونصيبنا لم يكمل بعد ..

الرجل الحديث - وما هو نصيبك ؟

الرجل القديم - أن تكون خالداً ..

المرأة القديمة - سيأتى يوم لا يكون فيه بشر على الإطلاق ..

الرجل القديم - وهذا معناه أن الحياة سرمدية أبدية ..

وقد يكون هذا غامضاً ، ما دامت الحياة تتركنا ونحن غير متأكدين من أن الخلود سيكون خلوداً شخصياً بوحدة فردية للحياة . أو سيكون خلود الحياة إجمالياً .. فلو كان المعنى الأخير هو الصائب - وهذا فيما أعتقد هو رأى برنارد شو الغالب - فإن الفردية ، فردية الكائن الحى - هى عمل المادة ووظيفتها الأساسية ..

منهاج التطور

ما هي طبيعة القوة أو النشاط الذي يتحدثون عنه أحياناً بأنه يسوق مقياس التطور إلى الأمام ؟

يمكننا أن نفسر هذه القوة في حدود نشاطها . فهي كما يقول برنارد شو : « الضرورة القصوى مع الاتجاه .. » ، تعبر عن نفسها في الإرادة التي تخلق المادة أو تصهر المادة التي تجدها وإن كانت لم تخلقها ..

يقول برنارد شو : « الرغبة في عمل شيء » ، هذه القوة تعمل في درجة معينة تملأها عليها الضرورة للخلق والإبداع ، فإذا كان الرياضى مثلاً - وهو يعرف أنه سينزل إلى مباراة - يمكنه أن يزيد من قوته ويضيف عضلة إلى عضلاته ، فمن المعقول جداً أن فيلسوفاً مقتنعاً بأساليب هذه القوة يمكنه أن يخلق « فكرة أو عقلاً » ومن الجلي إذن أن الطريقين ضروريان لنهاية حتمية .. والتطور يربنا هذا الاتجاه الضروري لعمل كل شيء ... ،

إذن فهذه الحاجة القصوى هي التي تحمل القوة على تنظيم الدفع الضروري لخلق أعضاء جديدة في النوع الموجود ، ثم لتنظيم الأنواع الجديدة للمخلوقات الحية . وهنا يأخذ برنارد شو من بطر ولامارك وجهة نظرهما ، وهي أن حاجة الحياة إلى شيء ينقصها يجعلها تخلق هذا الشيء تدريجياً وتدأب عاملة في الحصول عليه .

أذن فكيف حصلت الزرافة على عنقها الطويل ؟

يقول برنارد شو : « حاجتها القصوى للوصول إلى الأغصان العليا من الأشجار ومحاولاتها المستمرة حتى نجحت في الحصول على الطول المناسب للعنق الذي يعينها على سد حاجتها .. »

وهنا يلخص برنارد شو آراء لامارك الجوهرية في صدد الموضوع ذاته . ويستمر عرضه للفكرة فيقول : « أنت في حاجة إلى أعضاء جديدة أو إلى إضافات جديدة تستعملها أعضاؤك الموجودة ، وهذا معناه تكوين عادات جديدة ، وأنت تحصل على هذه الحاجات أو العادات لأنك تريدها ، وهذا يجبرك على المناظرة

في المحاولة حتى تحصل عليها . ولا يعرف أحد كيف ، ولا يعرف أحد لماذا أنت في حاجة اليها .. وكل ما نعرفه أن الشيء نفسه يأتي ، ونحن نفتكس ونرتد من محاولة إلى أخرى حتى يتحور العضو ، أو يتكون العضو الجديد ، ونفجأة يكون المستحيل ممكناً وتتكون العادة ..

فالعادة الجديدة أو العضو الجديد يتكون على مرور الوقت ، لانتا كما أسلفنا القول ، في حاجة اليه .

انظر إلى ما يقوله برنارد شو ، لو لم يكن لك عينان ، وتريد أن ترى ، وتعمل جاهداً وتحاول ، ورغبتك أن تبصر الاشياء ، فما لا شك فيه أنك ستري يوماً وتحصل أخيراً على عينين . ١٠

هذا هو إذن منهاج التطور . منهاج تطور البشرية ، فالرجل يشمر بمحاخته إلى شيء ما ، وتتكون فيه الرغبة الجائعة ، ويستمر الوقت ، ثم يحصل على هذا الطلب بنماقب الاجيال .

وقانون هذا التحول أو التطور ، يشرحه لنا برنارد شو في كتابه ، الرجوع إلى متوشالغ ، بأنه حاجة أولية ثم أمل ثم عزيمة ثم خلق . وهذا ملخص من حوار حواء والحية في بدء القصة .

الحية - الخيال أو الفكر هو بدء قصة الخلق . فأنت تتخيل ما تريده . ثم تقرر ما تتخيله . وأخيراً تخلق ما تريده .

حواء - كيف أخلق شيئاً من لا شيء ؟

الحية - كل شيء لا بد أنه خلق من لا شيء . انظري إلى العضلة القوية على ذراعك لم تكن هذه هناك في بادئ الأمر ، فقد كنت لا تقدرين على تسلق شجرة عندما أبصرتك في أول مرة . ولكنك رغبت وحاولت ، ورغبت وحاولت ، ورغبتك هذه خلقت من لا شيء هذه العضلة التي أراها على ذراعك حتى حصلت على رغبتك . وهكذا أصبحت تفلسقين هذه الشجرة بذراع واحد قوى ، وتجلسين على فرع فوق رأسك !

ويضرب برنارد شو مثلاً آخر فيقول : « وليس المنوال على طريقة واحدة . فإنك تظل تتمرن على عمل الشيء أكثر من مرة حتى تجيده . فقد تتمرن على ركوب الدراجة مثلاً لأول مرة ، وعند ما تبدأ الدرس الثاني لا يمكنك أن تبدأ من النقطة التي توقفت عندها بالأمس . فقد ترند وتنتكس إلى الابتداء . وأخيراً تنجح فجأة ، ولا تنتكس ثانية .. وأبعد من ذلك مدى ، أنك تمرن القوة الجديدة لا شعورياً .. »

فطريقة تقدم الحياة ، كما وصفناها آنفاً ، تعبر عن نفسها تعبيراً أساسياً في العادات التي نخلقها في الفرد ، لخصوصية الذهن وبعد النظر والذكاء كلها مواهب اكتسابية لحاجة الفرد إليها ، ولأن الحياة تريد أن تنظمها فينا ..

ويتضح مما تقدم أن تطور الحياة واندماجها في المادة ظاهرة مؤقتة من مظاهر الحياة ، وهكذا ظن القدامى في آخر فصل من رواية « الرجوع إلى متوشالغ » أنه كان في وسعهم أن يسيطروا على أجسادهم ويخلقوا أعضاء أخرى كالأذرع والأرجل عند الحاجة إليها . لأن فيهم قوى كامنة يمكنهم استخدامها . وإن كانوا في الواقع لا يعلقون أهمية تذكر على فهم هذه القوى ذاتها وطرق تحايلها . وقد ضاعوا ذرعاً بالمادة واحتيال المادة ، فاهتمامهم في اتجاه آخر ، ورغبتهم مركزة في شيء آخر . ففهم إذن ؟ .. وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، هناك عاملان مهمان في فكرة التطور يجب أن نقول عنهما شيئاً على كل حال ..

(!) تفهيد مسلك الحياة ..

نقول إن برنارد شو ، كما أسلفنا ، فيلسوف في معنى الكلمة . وفي قدرته كحكيم لأنه أبدى ملاحظات دقيقة في الموضوعات التي تهتم الإنسانية جمعاء . كالزواج والاعتدال والعظمة والخلود .. وكل هذا في الجزء الأخير من روايته « الإنسان والبرمان » وآراؤه فلسفية بمعنى الكلمة ، واستنتاجاته مرتبة .. وسأتناول هنا تفهيد آراء برنارد شو في بحوث ثلاثة هامة هي : مسلك الحياة ، ثم المرأة والعبقريّة ثم الفن والفنيين ..

إذا كنا عددًا وآلات خلقتها الحياة لفرضها الفطري ، وهو نشود الكمال ،
فإدراك وجودنا سنجد في تكميل مقاصد الحياة بالنسبة إلينا . وليس في مطلب
أغراضنا ذاتها ، واستمرار نشوء غرض الحياة سيكون في حالة بذلها أقصى جهدها
واستخدامها الفرد وطاقته للعمل في الطريق الذي رسمته له ..

ومذهب برنارد شو وطاقته وجهده كرسها كلها في نشر الاشتراكية وكتابة
المسرحيات ، ومن الجلي أنه وزع هذا المجهود في حرارة وحماسة ، وتجشم الصعاب
في سبيل نشر رسالته ، وصبره على المكاره ، وفي تفكيره الدائم بأن الفرد سيتقدم
ويرتقي حتما حتى يصل آخر درجة في سلم الكمال المنشود .

والحياة والحالة هذه تفقر من درجة إلى درجة ، وتنطوي صعوبات كثيرة
ذلاناها لها ، وتقدم في جيل عنه في جيل سابق ، وتستمر تفعل ذلك بمقياس أعلى
مما فعلته قبلا ، وذلك لإخصاب الإحراز والسبق في التحصيل والتكميل الذي
هيأناه لها ، والمجهود والسعي إذن هما الطريقان المؤديان إلى حياة ناجحة وسعيدة .
ولذا يقول برنارد شو ويأمر الفرد : احصل على ما تريد وإلا فستضطر إلى
أن تحب الشيء الذي اعتدت أن تحصل عليه عادة . .

ويقصد أنك إن اقتنعت بحالك سار منوالك على وتيرة واحدة ، ولكنك إذا
كأحت وناضلت فستصل حتما إلى ما كنت تصبو إليه وتعمل جاهدا للوصول إليه .

(٢) تفنيد المرأة والعبقرية

لا أريد أن أضع في أذهان الناس أن النساء عبقریات أو للنساء عبقریات .
إنما المقصد أن نعرض للعبقرية التي يفرضها شو ، بطريق التضمين ، والتي يقول عنها
إنها موقوفة على الذكور دون الإناث .

وعلمته في ذلك ، أن التأنيت في فلسفة التطور الخالق ، أكثر بدائية أو بمعنى أصح
أكثر تأصيلا من التذكير ..

وبذهب برنارد شو بعيداً فيقول : إن نواة الحياة كانت أنثى . . .
وليلبت في روايته ، الرجوع إلى متوشالح ، تظهر وكأنها قد أخرجت آدم من

داخلها... ففي البدء كانت ليليت ، التي جاءت قبل آدم وحواء... وكانت وحيدة.. ولم يكن معها رجل ثم دشطرت نفسها شطرين...، لتعطى ميلاداً جديداً لمخلوق جديد، ثم تركت حتى نهاية الباب الخامس ، حائرة قلقة ، ولما كانت تحاول أن تسود الجنس البشرى بإعطاء ميلاد آخر...

ولو عدنا إلى روايته الأخرى ، لن يمكننا الحكم ، وأنصتنا إلى الحوار الذي يجري بين جلوريا وقالتين لوجدناه لا يخرج عن كون ، البذرة الأولى للحياة كانت مؤنثة ، وانقسمت إلى خليتين... ، وتنضج هذه الصكرة الجنونية في منظر الجحيم من روايته الفلسفية الأخرى ، الإنسان والسيرمان ، وهنا يعتقد برنارد شو أن الحياة تعمل في المرأة لتخلق الرجل الذي يتقدم بالحياة إلى معارج الكمال... فمن الساحة الفلسفية تكون المرأة هي وسيلة الطبيعة التي بمقتضاها تخلق كمالها. كما أن الرجل جنسياً هو وسيلة المرأة الذي بموجبها يكمل مشيئة الطبيعة في أدق طرقها الاقتصادية ، وتعرف هي بالفريزة أنه في بدء التطور اخترعته وميزته ، بل خلقته خلقاً ، لكي تنتج شيئاً أفضل مما تنتجه خلية جنسية واحدة . ولكن من سوء حظ المرأة أنها أعطت الرجل جزءاً صغيراً في تدرج الإنتاج ، وتركته له طاقة جهد كبيرة ، لنيل أغراضه بالتحصيل والإحراز ، ليتقدم بنفسه ويتطور مع الحياة ، من غير بعد نظر منها ، أو سابق معرفة بما قد يحدث من ذلك المخلوق الذي أخرجه ولم تكن تدري أنه سيصل إلى مرتبة عليا من النبوغ والعبقرية . ولانضرب لذلك مثلاً فنقول إن تفكيرها كان قاصراً وضعيفاً...

ويعقب برنارد شو على ذلك بقوله : « إن المرأة فكرت أفكاراً لم تعمل لها أي حساب ، وصرفها الجمال والفروور عن تفهم ألوان الحياة . وكما كان مرعباً وخطراً أن تخلق أنساناً فرداً كانت وظيفته الأساسية تلقيحها فإذا حدث ؟ ضرب الرجل على يدها حتى كثرت عدد الرجال ، وملأوا الأرض وأصبحوا في مثل عددها ، وأضحت هي غير قادرة على أن توظف لأغراضها غير جزء يسير من القوى السكانية التي منحتها إياها ؛ بأن وفرت له قوة التلقيح ، فتسربت القوى الزائدة إلى مخه وعضلاته فأكسبتهما مناعة وحصانة . فأصبح قوياً جثمانياً ، وتفوق عنها في الخيلة والذكاء ،

المخلوق المحنارة القائمة ، بدون أن يرجع إليها ، وأخذ منها هذه القوى كقواعد للمخلق والإبداع والاختراع . . .

ويقول أيضاً ، واخترع الرجل الأحلام والمهازل والبطولة . . .

ويضيف جود إلى هذا قوله : « وخلق الأسباب والعقائد التي تسمى إلى التقدم به وبذا يتخلص بطاقته من الغرض البيولوجي الذي خلقته له المرأة . . . ، ولكن ما دامت المرأة هي العربة الوراثية للحياة ، وما دامت هي الأولى من الناحية البيولوجية ، والرجل الثاني في الترتيب ، فإن المرأة تنجح في تسعة وتسعين حالة من مائة ، بأن تجعله يخر تحت أقدامها ، وترجمه إلى حالته البيولوجية الصرفة ، أى بمعنى أنها تحولته من بطل مغامر إلى رجل وهمي خيالي . أولاً بعبادته لها ، وذلك عن طريق الحب والغرام . وثانياً بكثرة الإنتاج وخلفة العيال ، فتمتص ظميره . وتكسر شوكته بمستوجبات رعاية الأبناء والبيت . ويعود الفيلسوف جود فيقول : إذا أنت حصلت على عمل ، فمضى ذلك أنك تعمل ما يقدمه لك العالم ، ويدفع لك ثمنا عنه ؟ بدلا من العمل الذي تود أنت أن تعمله بحكم استعدادك وفطرتك . فمدوء الفنان والفيلسوف والنورى والعالم يحدث نزاعاً بين الإبداع وسلطان الجمال ، أو بين حب الاستطلاع ووفرة المعلومات ، وربما توهم الله في حالة ، وقوة المرأة ، ورمزية السلام والتحفظ وضرورة حفظ بقاء العائلة على قدر الحياة المثل في حالة أخرى .

فيوافق برنارد شو زميله جود ، ويفسر رأيه خير تفسير فيقول : الزواج للرجل سلسلة ضخمة تثبت فيه . أما المرأة فتولد والسلسلة معها ، والزواج إذن هو الطريق المفتوح أمامها لتثبت طرف السلسلة الآخر في الرجل ١١ ،

فيسرع جود ويقول : « وفي تسع وتسعين حالة من مائة تنجح المرأة . ذلك لأنها مدفوعة بقوة الحياة إلى المقدرة على مشاركة الرجل شجاعته أو استجابة مثاليته واسترجاع افكاره ، ولكن هذا الخامس سرعان ما يخبو ويذوب في ضوء النهار إذا ما تزوجت المرأة . فتندثر شجاعتها ، ويخبو حماسها ، ويبقى الرجل وحده يصلح من أمر المجتمع وقد بعدت عنه زوجته واهتمت بأمور بيتها وتركته وحيدا في ميدان الجهاد . . . وهكذا في تسع وتسعين حالة من مائة تطبق هذه الحالة . ولكن الحالة المائة هي حالة العبقرية ١١ والعبقرية مستودع لطاقة خاصة بالحياة ، خلقت

لفرض الواحد ، وهو رفع الحياة إلى مستوى أعلى وأرفع مما هي عليه الآن . وذلك بمنح الرجل نظرة أدق من نظرة المرأة ، وعمقا وصبرا على تحشم الصعاب ، وخوض غمار المسائل السياسية والعقلية ، ومنحه إحساساً دقيقاً بالجمال . . .

ويضيف برنارد شو إلى قول زميله جود هذا الرأي :

« العبقريّة رجل اختارته الطبيعة ليقوم ببناء صرح الوعي والإدراك اللذين هما غرضان فطريان من أغراض الحياة . . »

فهو بذلك العجلة المباشرة للورثة من الحياة كالمرأة تماماً . ولكنه سيضحي بالمرأة للوصول إلى أهدافه وأغراضه تماماً ، كما تضحي المرأة بالرجل العادي لاستكمال أغراضها باستمالة إليها بأدق طرقها المعروفة في الغواية والدلال . .

وبما أن العبقريّة تعبير قوى لا يطلق إلا على من خرقت آراؤه العادة ، ونضجت واكتملت ، وشقت طريقها بنجاح ملموس في سلم الإدراك ، فقد يدعى البعض أن هذا الرجل لم يصل إلى العبقريّة إلا عن طريق امرأة . وهذا قول خاطيء من أساسه . بل هو قول لا يستند إلى حقيقة صريحة ، وأعده قولاً فائراً ضعيفاً .

وكثيراً ما يقولون : إن المرأة لعبتها الرجل !

فإذا كان الرجل ألوبة في يد المرأة . . فهل هو شوير أو سيزان أو بليك أو

تولستوى أو سويدنبرج أو بفيان أو برنارد شو ؟

ماذا عن هؤلاء ؟ ! لهم جميعاً خرقتوا العادة ، وسخروا بالمرأة ، وأنبتوا انهم

عباقرة أفذاذ ! !

ولنفرض عبثاً أن ذلك الرجل أصبح زوجاً ، ولسر ما فعل في حياته ، فاضطر والحالة هذه أن يضع زوجه لتعمل له ، وتحصل على المال اللازم لتعيش ولعيش أولادها ، ويقصد جود هنا أن يضع المرأة مكان الرجل في المجتمع ، فإن الرجل والحالة هذه أول ما يعمد إليه أن يضيع حياته كلها بدرس في قاعته المنعزلة ، يذوى شبابه ويحرق أعصابه في سبيل بحث يواصله ويعمل جاهداً على تحقيقه

وكشف معمياته . ولنفرض أن هذا البحث هو دراسة المرأة التي يعيش على مالها
كما درس داروين مثلا علم الأحياء ، أو كما بحث اهرليش البكتيريا ، فهو والحالة
هذه إنما ينسكرك ذاته في سبيل غيره ، أو أنه اناني جشع في احتقاره الآخرين . .

فهل تعتقد أن المرأة تنجح في عملها نجاح الرجل فيه ؟

سرعان ما تلتقي المرأة مع غرض « مبهم » ، وتصطدم به اصطداما يحدث معظم
الأحوال مأس وفواجع !!

هذا الغرض « المبهم » هو من غير شك العبقرية ! العبقرية التي تصطدم بأحجارها
ولسكنها لا تصل إليها !!

وبما أن التعارض بين المرأة والعبقرية ينتج من توجيه الوراثة التي ورثها
الانثان – الرجل والمرأة . . من الحياة ، أو بتعبير أدق من قوة الجهد التي أعلنت
عنها الحياة فيهما ، فغرض الحياة في حالة العبقرية أن تتقدم بنفسها تجاه ذرا السكالم
التي لم تصل اليه على يد المرأة ، وتصور أو تحافظ على المقياس الذي سبق أن أحرزته
عن طريق المرأة نفسها . . .

(٣) تنفيذ الفن والفنانين

رأى برنارد شو في الفن ملوس .

والفن كما يفهمه ماهو إلا آلة تكمل بها الحياة غرضها بطريق رفع نفسها إلى
مرتبة عليا ، والفنان العظيم هو الأداة التي تخلقها لتتبع هذا الغرض وتكمله .

وطريق تقدم الحياة يتشعب عادة إلى فرعين : الفرع الأول ، يشير إلى أن
الفنان العظيم إنما يستقى وحى إلهامه من نبع جديد في الحياة . .

فهو يجسم نظريته مثلا في الرسم أو في الصوت أو في الصخر أو في السكالم . .
وهذه النظرية في الواقع لا تتعدى كونها نظرية أصلية متينة البنيان . .

فإن عمل الفنان الذي يتجسم فيها – النظرية الحققة – يتعدى قانون الإنشاء ،
ويخرج على طرق الفن الموضوعية من حيث الهيئته والأسلوب والذوق ، وتتصل
من للعرف والتقاليد ، ولا تلتفت لأي شيء كان ، بل تسخر من المؤلف ، ويضرب

لذلك برنارد شو مثلا فيقول : إن سيمفونية بيتهوفن الثالثة ، أو موسيقى واجنر ، أو رسومات الانطباعيين كلها أمثلة على ما يدعيه . . فهي تنازل الأفكار المتسلطة على العقول ، المتفشية في كل وسط ، وتحارب الآراء المبسرة والمتحيزة ، ثم تقفز هنا وهناك في وجوه الحكماء والفضلاء من بني الانسان ١١

لذلك فإن حياة العبقرى دائما لا تخلو من تعاسة وشقاء . تخيم عليها ظلال الوحدة وتفزوها حروب الوحشة والضلال . والعبقرى عادة هو انفس خلق الله ١١

فإذا خرجت فكرته إلى الحياة وتجسست كظاهرة جديدة ، فإن الآخرين سيأتون حتما ليروا الاشياء في لون المنظار الذي اخترعه هو لهم . وقد تقبل فكرته وقد لا تقبل . وقد تعد مقياسا صحيحا للذوق السليم وقد لا تعد إطلاقا . . وقد يقولون عن رأيه إنه مستقيم ، وقد يقولون إنه معوج لا خير فيه . .

هذه هي المرحلة الثانية ، المرحلة التي سيتحرك خلالها ضمير البشر العادى ويسمو ويرتفع أو يهبط لينخفض . . ليحكم على هذا العبقرى الذى ظهر بينهم . . إذ ذلت فالعبقرى هو ، قابلة الجمال ، . . ١١

إنه لا يخلق الجمال ، ولكنه يورث الصدوت ، أو الرسم ، أو للصخر الجمال الذى هدف اليه أولا ، ولذا فإن الرجال العاديين بأذواقهم المختلفة المتباينة قد يتعشقون هذا الجمال الذى يجسمه لهم الفنان ، بل يوجد لهم ، ويضحى بنفسه في سبيله ، وبكل مألديه للحصول عليه ، والاعراب عنه بشتى ما أودعته فيه الحياة من حساسية مرهفة وشعور دقات بمواضع الجمال لإبرازه وإخراجه حقيقة ملووسة .

وهذا إذن هو مبدأ برنارد شو في الفن . . إنه آلة . وآلة مهمة لتكريرو ونوسيع دائرة الإحساس عند الرجال والنساء . ولرفع الحياة أيضا إلى مستوى رفيع من الإحساس والوعى والإدراك والشعور والوجدان . .

وهذا أيضا أساس نقد شو ومجرومه وسخريته من الفن الرمانتيكى . فالفن كما يراه شو هو ثمرة ومجهود فنان مطبوع . فنان ذكر ، وهو بديهي - الفن - الوسيلة التى تنشدها المرأة ليجدها به الفنان . وهذه وسيلة أخرى لاستخدامها قوة الفن لرفع مستوى الحياة . أى أنا يعود إلى نظريته فيقول : إن الحياة تدرج على كـ . .

الفنان لبلوغ مرماها وهدفها الاصلى . . كما أن الفن كان يجب أن يتخطى الجنس . ولا يمجّد المرأة . وفي هذا المعنى يمكنه أن يقول : لا تنفّس عن المرأة ، وهذا المثل الجديد هو مفتاح دفع الفن الرفيع إلى الامام . ومادامت هناك محاولة أخرى لا تقل عن محاولة أفلاطون في تفسير هذا الرأى فقد رأينا أن نتحدث عنها ملياً .

برنارد شو وأفلاطون

لأفلاطون محاورتان مزدوجتان في تفسيره للفن .

فهو يشتهر فيه لأنه يوقظ العواطف النائمة التي كان يجب أن تترك خاملة ، ولأنه يقوى ناحية الروح ، ويحسم صور الأشياء للعالم المعقول ، وبهذا يزيد من نشاط الروح ويكشف جاهداً عن ماهيتها . . . رغم أنه ندد في أكثر من مقال دورى فكرته التي قبلت الفن كوسيط لإبراز هيئة الجمال وجعلها - الفكرة - كنافذة ترى منها روح الإنسان قبساً من الحقيقة التي طمستها الاجيال وغلق على أذهان الناس فهمها ١٩

وعند ما يحاول أفلاطون أن ينتقل من الحالة الاولى إلى الحالة الثانية ، فإن تطور نضج رأى برنارد شو أى فكرته يظهر كأنه عكسى أى أنه ينتج من الحالة الثانية إلى الحالة الاولى ، ففي روايته : الرجوع إلى متوشال ، نجد مكاناً لا بأس به خصص للفن يعالجه فيه ويفسره على ضوء قوى من الحقيقة . .

فالحب ومهرجان الفنانين كافي بدء الرواية لا يخلوان من تقرير الحاضر، وسخرية لاذعة بالتقاليد والاضاع المألوفة . فيقول مثلاً : دعنا نترك تلك السفسف . . .
الدمى والالعب والحلوى ١١ ،

ويظهر الرجل القديم ، يحقر ويصغر من شأن الفن تحقيراً تاماً كما فعل أفلاطون عند ما أعلن نفي أو طرد الفنانين من المدينة الفاضلة ، أو كما يقول : عند ما تكبر وتتصور الأفكار وترسم الصور ، فتفسج القصص من الدمى وما أمامك من ألعاب خيالية ١١ ،

ولكن من الذى يصنع التماثيل والدمى والصور إذا لم تحضره الفكرة أو الأساس ١٥

ومن الذى يريد قصصاً إذا كان يعرف الحقيقة . إنه لن يتزعج إلى خرافة ولن يميل إلى أسطورة ، بل سرعان ما ينفذ كل شيء لأنه يلمس الحقيقة عن وعى . ولكن هذا الرأي تنعده . الإنساسة القديمة ، بالرى والنماء ، فتقول إن الفن ، مرآة سحرية تخلقها أنت لتعكس عليها أحلامك غير المنظورة فى صور مرئية حقيقية . . . إنك تستعمل مرآة لفرى وجهك . وتستخدم أساليب الفن لترى روحك . . . ولكن نحن الذين سبقتك فى المعرفة ونكبرك سناً لا نستعمل مرايا ولا نستخدم الفن ، بل لنا حاسة خاصة مستمدة من الحياة مباشرة تتميز بها الحقائق ، ونصل إليها مباشرة !!
وعند ما تحصل على هذه الحاسة أو تورثك الحياة هذه الحاسة ستلقى بمرآتك جانباً وكذلك ستفعل بتماثيلك وألعابك ودميك !! ،

وبرنارد شو لا يفعل كما فعل أفلاطون أو يعتقد مثله بأن الفن ضرب من الخيال الكاذب ، يبعدك عن تفهم الحقيقة . وهو على الأقل فى نظره ، عوض عن الحقيقة . أو وسيلة للحياة تتطور على أكتافها لتتسم غرضها الاسمى وهو الكمال المطلق المذشود . . .

وهذا رأى معناه أن الفنان يمكن اعتباره كفرد رأى الروح وتشبع بالحقيقة ولكن لسبب ما لا يعرف كيف يفصح عنها أو يثبتها - الحقيقة - فى أذهان الناس وبذلك يترك وراءه أثر أخالداً كرسماً أو تمثال هو فى الواقع تذكار للأصل أو للحقيقة التى رآها مرة ولكنه لا يمكنه أن يراها على الدوام ؟ وإذا كان هذا صحيحاً ، فإن عمل الفن يصبح تعبيراً ، ليس عن الإلهام ذاته الذى يمتاز به الفنان ، ولكن عن الإلهام الذى أتاه مرة وفشل لسبب ما فى المحافظة عليه وأخراجه للناس على الدوام . وهذا شيء فوق طاقة الفنان . أى أنه لا سلطة له على ذلك الوحي أو الإلهام !! حقيقة إنه يجيئه من وقت لآخر ، وتكشف له أسرار الحياة فى اللحظات ، ويرى بنفسه النور ، ويقسم على أنه توصل إلى معرفة الحقيقة - حقيقة الحياة . . . حقيقة العالم والوجود . . . ولكن سرعان ما يذهب الوحي ويغيب الإلهام ، ويذهب الناس ما كان يرمى اليه الفنان برسمه أو تمثاله أو موسيقاه !! ولم أجد شاهداً على هذا الرأى فى شرق ، رغم أنه نتيجة منطقية لرأيه فى الفن !!



الفنان العظيم

ع ————— ود على بدء

أهداف الحياة ...

إذن ما هي الحقيقة التي يعمل منها الفنان صوره ونماذجه ، تلك الصور والنماذج التي فطن اليها الاولون فلقبوا بالعارفين ١٤

يظهر أن برنارد شو لم يعمل رأيه ليحسم الموضوع ويربحنا من كثرة الحدس والتخمين ... ١

وكل ما يمكننا قوله إن فلسفته تصور تطور الحياة بأنه تقدم مدوس لقوة شديدة خارقة للعلم وللدراية . وهذه الدراية يجب أن تباشر عملها على محور رئيسي . وهذا المحور هو شيء آخر خلافا .

وفكرة برنارد شو كما تظهر لي ، تتطلب تضمين أو إدخال عنصر متوازن ثابت غير متغير في العالم بمباشرة قوة الحياة المطردة له فينتج ما يسميه وعيا وإدراكا للمكليات ، وهذا العنصر سبق ان افترضته فلسفات أخرى تشابه افتراض برنارد شو وبهذا فإن الفلاسفة الافلاطونيين وصلوا إلى التأثير النظري بالصيغة الابدية ، فإن إرسطاطاليس مثلا كان يحل المشاكل الرياضية البحتة والمكليات الحسابية وعلاقتها بعضها ببعض ، أى أنه كان يفكر في اتجاه معين بحثا عن غرض رئيسي أو هدف اسمى للحياة بطريقته الخاصة التي انفرد بها دون سواء من الفلاسفة الآخرين .

فالحياة تهدف الى غرض معين .

وبما أن عامل التغيير في العالم كان جوهريا - على ضوء نظريات شو وأمثاله من دعاة التطور ، فإن إدراك المفكر - الذي تعمل فيه قوة الحياة نفسها - كنفيل بأن يصل إلى الوقوف على هذا الغرض بطريقته الخاصة التي انفرد بها دون سواء من الفلاسفة الآخرين ، مثله في ذلك مثل إرسطاطاليس .

وبكاد برنارد شو يقترب من الهدف الذي نعمل له الحياة .

ويكاد هذا التقريب أيضاً أن يجيب على سؤالنا المذكور أعلاه إذا رجعنا إلى أقوال برنارد شو، ووقفنا على رأى المرأة القديمة عندما تتحدث عن العاسة المباشرة وتفسيرها لهذه العاسة هو تفسيرها للحياة ذاتها وليس للحقيقة نفسها . . . وتترح بأن قوة الحياة للدراية والمعرفة فى اسمى طرقها تدور حول نفسها أو حول محورها .

وحدث ليلىث فى الرواية الذى يكشف عن رأى برنارد شو عبارة عن حديث شاذ غير إخبارى أو اعلامى .

ما الذى نريد أن نعرفه ؟ وما هو ذلك الشئ الذى توصل اليه الاقدمون بإدراكهم المتقدم ؟ وماذا كان يشغل أفكارهم ؟
وأخيراً ما هو غرض الحياة وهدفها الاسمى ؟

إن الرد على هذه الاسئلة موجود فى الملمخص الآتى المأخوذ من رواية برنارد شو المشهورة : الرجوع إلى متوشالغ ، فى حديث ليلىث .

« وبعد تخطيطية ملايين الاهداف ، فإنهم يضغطون على هدف واحد هو تخلص الإعصار من المادة إلى دوامة الذكاء الخالص الذى عند ما ابتداء العالم ، كانت دوامته خالصة نقيه ١١

« ورغم أن كل مجهوداتهم تجلت بوضوح فى أول ساعة للخلق ، فإنني لن أنخطئ هذه المجهودات حتى يجدوا خلاصاً لذلك الشئ الذى يربط بين الجسم والروح ، ويعرقل حياتهما على الدوام ١١

« لقد أتيت بالحياة إلى دوامة القوة . وأجبرت عدوى المادة لتطيع روحاً حياً . . . وبإخضاعى عدو الحياة جعلته سيد الحياة ١١ لأن هذا هو نهاية حتمية للعبودية المرذولة . وسأرى أن العبيد يعنق والعدو يتصالح ، وتصبح الدوامة كل الحياة وليست مادة ١١

وهذه الأقوال الغامضة تنجسم فى التحليل الآتى :

(١) إن الحياة كانت فى الأصل دوامة فى قوة خالصة .

(٢) وأنها تدخلت في المادة ، وأجبرتها على إطاعتها .

(٣) وبفعلها هذا أصبحت عبداً للمادة ..

(٤) وأن غرض الحياة يتركز في وضع حد للعبودية بطريق كسب الحرية للمادة المغزوة . وليس واضحاً ما إذا كانت المادة ستظل كذلك تورط الحياة وتربكها ، أو أن المادة تضحل بواسطة الحياة ، وفي هذه الحالة تتوقف لتصبح :

(٥) متحررة من العبودية وتضحى فكرياً حراً صريحاً نقياً ..

الفرق بين الفلسفتين :

الشفائية والبطلية ..

قوة الخلق تعبر عن نفسها في المادة ، وتصرفها في قوالب متعددة ..

هذا هو أسس فلسفة برنارد شو وزميله صمويل بطلر ...

وكلا الاثنين يعبران عن مظهر خارجي للمادة ، ولتضرب لذلك مثلاً فنقول : كل مفكر حر هو مقياس للذكاء النادر ، وكلاهما يمتدح الذوق السليم . وشو كبطلر يكره المحترفين وعلى الأخص الأطباء ، ويحاول أن ينظر إلى الناس من الناحية البيولوجية الصرفة . وينظر إلى أعضاء الجسم نظرة خاصة ، وبأن هذه الأعضاء هي أهم منتجات التطور . وزيادة على ذلك ، فإن لبرنارد شو كما لبطلر نظرة خاصة في فائدة الإيهام للإنسان ..

وإلى الآن فإن نظرتي المفكرين : شو وبطلر متشابهتان تمام التشابه ، هذا ما يظهر في الغالب ، ولكننا إذا دأبنا البحث وجدنا اختلافاً جديداً . ذلك أن بطلر يعتبر عمليات البحوث النظرية ، عبث متحذلقين ، ويحبذ رصانة العقل العملي للوصول إلى مدى الشعور والإدراك . وليس في كتاباته شيء يوضح أو يكشف أنه يظن أن الرجل قد يكون أحمق حالاً من غير العقل مطلقاً ، وأن قمع البحوث العملية قد يؤخر معراج التطور ..

ولكن برنارد شو من الناحية الثانية يقول بأن البحوث العقلية هي أهداف التطور . ويتفق الاثنان على أن القوة التي تنشط الكون مفردة .وحيدة . أو في حالة برنارد شو هي حاجة ملحة تكافح الإدراك ..

ويمجد برنارد شو الحياة ويقول « إذا كان لنا أن نعيش بلباقة ، فيجب أن نعيش طويلا » وهو يريدنا أن نعيش طويلا لنعرف ونفكر كثيراً . . . وهذا فإن القدماء العارفين في روايته « الرجوع إلى متوشالغ » يوظفون حريتهم في تفسير ماهية العقل ! ما الذي يفعله العقل ؟

إنه يفكر ويتأمل ويتبصر في الأشياء ١١

التفكير والتأمل والتبصر في أغاز الحياة وأسرارها خلال العصور المتعاقبة ، الذي يهبر عنه شو بأنه « موضوع التطور » ، ولأجل هذا فإن تجربة الحياة كلها وجدت سبيلها وطريقها . . .

أما بطلر فقد رسم الطريق لهذا الرأي ، ولكنه لم يشترك فيه برأى صريح . وكل ما فعله أنه قسم المعنى ، ووصف نظام التطور ، ولكنه لم يعط ملاحظة تذكر عن غرض الحياة أو سببها الرئيسي المباشر ١١

والنظام الذي يحدثنا عنه شو في روايته « الرجوع إلى متوشالغ » ، هو في الواقع نظام تقدمي ظاهر يسير على هدى آراء صمويل بطلر نفسه ! أو هو بمعنى آخر تنمة بحث بدأه بطلر وتقدم به برنارد شو تقدماً ملموساً ، وصل به إلى نتائج معينة . . .
وهذا يمكننا أن نقول :

إن بطلر كان الجسر الذي عبر عليه شو ليضع نظريته المشهورة « قوة الحياة » ،
أى أن بطلر كان لبرنارد شو بمثابة سقراط لأفلاطون ١١

وهذا يستقيم البحث ، ويكون كل منهما متمماً للآخر ، رغم الاختلاف الذي وقفنا عليه في تفسير وجهة نظر الاثنين . . .

وهذا معناه أن أحدهما يكره البحث النظري ، بينما الآخر يميل إلى البحث العقلي
البحث ...

تصديق فاسفة برنارد شو

من الخطل الحكم بأن فلسفة برنارد شو وجدت حقلا واسعا من الذبوع والانتشار والقبول ... وذلك لأن تقدمه فى بعض الحقول الأخرى يبعد عنه حكم الناس واستمالتهم لنظرية فلسفية جديدة يطلع بها عليهم .. فالإنجاز مثلا - أى الذوق الإنجليزى - يجدون صعوبة كبيرة فى أن ينفروا رجلا ذاع صيته وكسب أكثر من شهرة واحدة فى ميادين الأدب والعلوم ..

وبرنارد شو فى هذه الحالة حصل على أكثر من شهرة واحدة قد تصل إلى نصف دسسته 11 ومن السهل أن نتجاهل كونه فيلسوفا ، إذا تمسكنا مع عقلية السواد الأعظم من الناس ، لأن الكاتب الفائز ، ومؤلف المسرحيات الناجح ، والخطيب المصقع ، والفكاهى المحبوب ، والسياسى الداهية ، ومعبود الشعب . كل واحد من هؤلاء لا يمكن أن يوصف بالفيلسوف ، لأنه بعيد كل البعد عن الطاقة والجد والدراية الواسعة بأساليب العلوم التى يتطلبها عقل الفيلسوف ..

وبرنارد شو يضرب بهم وافر فى كل حق من هذه الحقول ، واسكن نظريته فى التطور الخالق ، يكفى أن يقال فيها إن عقل فيلسوف هو الذى يفكر فى تحليلها ووصفها أحسن تحليل ووصف ، ولا شك أن هذا العقل هو عقل برنارد شو الفيلسوف 11

وهناك مصداق لفلسفة برنارد شو هو رأى برجسون فى التطور الخالق ، ورأى س . الكسندر فى المكان والزمان والالوهية ، وكل هذه الآراء تشبه آراء برنارد شو فى الجوهر وإن اختلفت عنها فى المظهر والتعبير ...

صعوبة الهدف أو الغاية

يرينا برنارد شو العالم وقد دب فى الحياة . والمادة التى تتجسد الحياة نفسها وتتقدم بموجبها .

ولكن إذا قلنا : هل لهذا التقدم من نهاية ؟

فمسير علينا أن نجيب على هذا السؤال ..

وقد يقول برنارد شو بأن الحياة تتطور في المادة وخلالها . . . ولكنه لا يجيب على السؤال ذاته ١

صعوبة العلاقة بين الحياة والمادة

ليس هناك تفسير دقيق بين علاقة الحياة بالمادة . . . فالحياة تتدخل في المادة تدخلًا قوياً ، وتستعصمها وتصهرها . . . ولكن كيف يحدث ذلك ؟ لا يقيم إنسان الدليل على هذا التدخل . . . أو حتى يأتي بتفسير مناسب . . . والمسألة التقليدية لعلاقة الحياة بالمادة كما أقول لم تحل بعد . . . وأحياناً يتحدث برنارد شو عن المادة بأنها تجذب الحياة . . .

يقول بيجماليون في رواية « الرجوع إلى متوشالخ » ، خطأ البروتبلازما التركيبية أنها لا تتحدد أو تفسر قوة الحياة . أنها أشبه بمغناطيس خشبي أو موصل مصنوع من خيوط حريرية ، لا يسرى فيها تيار كهربائي ١١ .

وكثيراً ما يقال لنا بأن الحياة أو التطور ، يجب أن تتعارض مع المادة والزمن بطريق التجربة والخطأ من أجل أن نسمو على المادة والزمن ، ومن الطبيعي أن تكون هذه العلاقة عسيرة وصفها . ولكن يمكن الوقوف عليها في لغة البيان والبديع . وهذه الحقيقة في نظر كثيرين ، إذا كانت حقيقة ، تبدو معقدة وأن العلاقة التي تظهرها تبدو غير معقولة . . . والى مكان العلاقة المستمرة بين الحياة والمادة ، هي نفس العلاقة بين الأعضاء الحية وبين العقل والجسم . . .

وكلا الطرفين المتروكين على الغارب : العقل والجسم ، لا يمكن أن يرتبطا معاً برابط وثيق ، ولكهما قد يتركان متدليين على الدوام . إذن فعلى هذا الضوء ، نرى أن العلاقة بين الحياة والمادة كالعلاقة بين الجسم والعقل ، كل في واد خاص ، وإن كانا متحدين في هيكل واحد إلا أن طبيعة عمل الواحد منهما تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة الآخر ، ولكن لا سبيل لانفراد الواحد عن الآخر ، واستقلاله بنفسه ، فكلاهما متمم للآخر يعمل معه على تقدم الحياة . .

صعوبة الإرادة المطلقة

ومن الصعوبة أيضاً إثبات حرية الفرد .

وهل الفرد مجرد عجلة أو آلة لتطور قوة الحياة ، وبلوغها مراتب الكمال ؛

أو هل يكتسب بعض مقاييس الحرية من تقدم الحياة ذاتها ؟

ففي الحالة الأولى ما هو إلا قلم حبر ، تستودع فيه الحياة مجراها ، والفرد هنا

غير مسئول عما يفعله تماماً ، كما أن القلم غير مسئول عما يكتبه !!

أما عن الحالة الثانية فيقول برنارد شو إن النجاح في الحياة يحتوي عادة على

استخدام أو استعمال المسمى أو الفرض عن طريق القوة التي أوجدتك وفتحت

أمالك الآمال فتتبع أغراضك ذاتها وتدأب في الحصول عليها . . .

وهذا هو رأى برنارد شو العام في تحديد غرض الحياة . . . فنحن نشغل أنفسنا

بحاجاتنا بدل أن نستعمل أنفسنا في خدمة الحياة ،

وبرنارد شو يعنى أننا أناثيون ، نعوق تقدم الحياة في سلمها المنشود . . . ورغم

أن الحياة تفعل كل ما في وسعها لتربينا عن طريق برنارد شو وأمثاله من أفذاذ

الرجال وعباقرتهم ، غرضها الاسمي ، لتعطينا فكرة عن غرضها الرئيسي ، الطريق

الذي يجب أن تسير فيه أو تسيرنا هي فيه ، وتشجعنا على المضي فيه بكثرة مغرياتها،

والأهداف التي يسعى إليها كل إنسان من الطموح والكفاح وبوارق المجد إلا أننا

كثيراً ما نضل في وهادها ، وصحاريها التي لا حدود لها . . .

وعلى سبيل الفرض نحن نتمتع بحرية كافية أو أن حرية الإرادة المطلقة مكفولة

لكل إنسان ، فلا شك أن صعوبات ثلاث ستقف في طريقنا على الدوام :

(١) هل حريتنا هذه حرية تذهب في اتجاه خاطيء ؟ وهل نحن إذا سلكنا

الطريق الصحيح نؤدي غرض الحياة على أكمل وجه ؟

(٢) وإذا كنا أحراراً بمعنى الكلمة ، هل نشقى أو نتخذ الطاقة التي تساعدنا

— الحرية — في السعي لمنهاج متباعد أو منفرج ، من غرض الحياة الاسمي

بالنسبة إلينا ؟

ولنقرب فهم السؤال إلى ذهن القاريه فنقول :
لنفرض أننا آلة الحياة ، أى مطيتها التى تريد أن تعبر عليها بر السلام أو الكمال
المطلق المنشود ، فكيف للآلة أن تدور ضد اليد التى دبرتها أو أحسنت استعمالها
وخلقها ، فساستها فى الطريق الذى تريده وتراه صالحاً لها وللمجموع ؟
إن برنارد شو نفسه لا يعرف كيف يجيب على هذا السؤال . .
(٣) إن نظرية برنارد شو تمدنا بتعبير قاصر يرئى له . . عن حقائق التجربة
المعقولة فى نظراته للحياة !!

وهنا ينتهى تحليل الفيلسوف جود لفلسفة برنارد شو ذلك التحليل الطويل
الذى كان لا بد لنا أن نعرض له ، حتى يلم القارىء تمام الإلمام بنظرية برنارد شو
فى الوجود وفى الوجود الأعظم . .
تحليل جود هو لا شك تحليل دقيق ، يدور وبدور ويقيم الأدلة والبراهين
على وجاهة النظرية أو تصدعها ، ولكنه لا ينتهى بإقناع حاسم أو رأى سديد . . .

